فؤاد أبوحطب كما عرفته الصداقة صدفة

أ. د. محمد عبدالرحيم عبدالله *

لا زلت وأنا فى بداية العقد السابع من العمر أؤمن بأن الصدفة قد شكلت مجرى حياتى وكان لها الأثر الأكبر على ما حصلت عليه ومافقدته . وماحصلت عليه بالصدفة كان معظمه مكاسب على عكس كم الاحباطات التى نالتنى من جراء ما رغبت فيه وخططت له ، وكم حزنت لشىء لم أنله ثم أثبتت الأيام أن الخير فى عدم حصولى على ما تمنيت فى لحظة من اللحظات .

إلتحقت بدراسة الطب صدفة ، إخترت تخصص الأمراض الجلدية رغم مغريات التخصصات الأخرى صدفة ، حضرت دورة التعليم الطبى صدفة ، ثم إستهوتنى دراسة العلوم التربوية لأتعمق فيما تعلمته فى دورة التعليم الطبى كى أطبق ما تعلمته فيها ، وكان السماح لى بتطبيق الأسس التربوية السليمة أيضا صدفة .

أعز أصدقائى إلى اليوم تعرفت عليهم فى ظروف هى الصدفة بعينها .

وقد عرفته صدفة ونحن فى أواخر الأربعينات من العمر وكلانا من نفس السن تقريبا وتآلفنا وكانت الصداقة . يقولون إن الصداقات الحقيقية التى تدوم هى التى تبدأ فى مقتبل العمر قبل العشرينات ، العلاقة التى تشعر فيها بالفهم والتفاهم المتبادل تختلف وتتفق ولكن القدرة على فهم الآخر رائدة تلك العلاقة . التى تقبل فيها صاحبك ، على بعضه بحسناته وعيوبه (وغالبا لا ترى تلك العيوب) . فهم كامل متبادل . ولكن علاقتى بفؤاد كانت الإستثناء لتلك القاعدة .

فى سبتمبر من كل عام تعقد دورة إعداد المدرس الجامعى بإحدى كليات جامعة عين شمس وتستمر ثلاثة أسابيع ، يقسم الدارسين فيها إلى مجموعات من حوالى عشرين دراساً ويقود كل مجموعة إثنان من الأساتذة أحدهما تربوى والثانى من إحدى الكليات الآخرى وتجرى الدراسة بنظام ورش العمل ، التى تقوم أساسا على طرح إحدى الموضوعات ومناقشته مناقشة مستفيضة يتفاعل فيها الدارسين والرواد .

(*) أستاذ الأمراض الجلدية والتناسلية كلية الطب جامعة عين شمس .

وهنا تلعب كفاءة ودراية الرائد دورا مهما فى توجيه المناقشات وطرح الأسئلة التى تقود الدارس فى النهاية إلى المعلومات المراد توصيلها إليه ، ثم يطلب من مجموع الدراسين تطبيق المعلومة فى إطار مشروع منهج دراسى تقترحه المجموعة ، يستمر المشروع طول الثلاثة أسابيع المخصصة للدورة .

حل نظام ورشة العمل مكان نظام قديم يعتمد أساساً على محاضرات تلقينية فى مختلف الموضوعات التربوية . وكان التناقض واضحاً بين مضمون المحاضرات والهدف النهائى للدورة وهو تعريف الطالب بالمفاهيم الأساسية فى علوم التربية وأن الأخيرة علم مبنى على نتائج أبحاث علمية تراكمت وأختبرت على مدى القرن وأن الكفاءة العملية التعليمية مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بتطبيق ما وصل إليه العلم التجريبى فى هذا المجال . ومن أهم نتائج تلك البحوث أن الاختبارات المبنية على استرجاع المعلومات تنتج خريجا أقرب إلى الجهل، عاجز عن حل مشكلة مستخدماً ما تعلم فى حلها ، وإن طرق التعليم التى لاتراعى مشاركة الدراس مشاركة إيجابية تدفع بالحلزون التعليمى إلى أسفل دفعا . لم يحظ إقتراح التحول من الأسلوب التقليدى إلى أسلوب ورش العمل قبولاً لدى الكثير من الرواد رغم ظهور أعراض الملل على الدراسين وإنعدام الحماس بينهم وتوترهم والإنصراف عما يقوله المحاضر . أى تناقض كانَ هذا . إحتدمت المناقشات فى لجنة الإعداد للدورة المقبله فور طرح فكرة ورش العمل كبديل للطريقة التقليدية وإرتفعت الأصوات وكاد الموقف أن يتأزم . صاحب الفكرة أستاذ فاضل فى العلوم العصبية والنفسية ، مقتنع بجدواها وبقدرتها على حل مشاكل الدارسين من ناحية ومن دفع الحلزون التعليمى لأعلى من الناحية الأخرى . وجاءت الإعتراضات من البعض تنقصها الموضوعية ، مما أى إلى زيادة التوتر فى الاجتماع ، طلب زميل ذو سحنة مصرية صميمة الكلمة ، أسمر خفيض الصوت هادئ يرتدى نظارة طبية سميكة ، زحف الشيب على فوديه . إنسابت الكلمات من شفتيه هادئة موضوعية واستمر هو فى الحديث متسلحاً بعلم غزير وثقافة واسعة : لخص رأيه وأفكاره فى قليل من الجمل المفيدة الواضحة ، كان تأييده لاستخدام طريقة ورشة العمل واضحاً مستشهداً بنتائج البحوث التى درست وقارنت الطريقتين . لم يحاول إقتراح حل وسط – كما هى العاده – يرضى جميع الأطراف ويفرغ الفرة مضمونها .

إنتهت كلماته وبان الارتياح على وجوه الجميع: إقتنع المعارضون وارتاح المؤيدون وانفض الاجتماع . هكذا كان فؤاد أبو حطب دائماً قادراً على إقناع الآخرين بكلمات بسيطة تلخص جوهر الفكرة بموضوعية وهدوء ... يكتسب ثقة المستمع ويشعره أن ما يقول لا يختبئ وراءه غرض أو هوى .

مرت السنوات ونجحت الدورات شهر سبتمبر من الشهور المحببة إلى قلبى أعشق فيه السفر إلى المصايف بعد أن ينتهى زحام أغسطس وحرارته الرطبة. يوافق موعد سفرى بداية الدورة فأعيش ممزقا بين الرغبة و الواجب . أجر قدماى إلى الجامعة لأشارك فى الدورة ... واجل آسف على ضياع أجمل شهور السنه. أتوجه أول ما أتوجه إلى إدارة الندوة اسأل عمن سيرافقنى فى رحلة الثلاث أسابيع القادمة. اللهم إجعله خير . لا شيء أثقل على النفس من أن تضطر للعمل مع من تختلف كيمياؤه عن كيمياءك ، كأن يكون متعالياً ومدعياً ، غير هاضم لفلسفة الدورة أوملم بمنهج ورش العمل. لهذا كنت أهتم بمن سيكون رفيق رحلة الثلاث أسابيع .

فى ذلك اليوم اتجهت إلى مقر الندوة داعياً إلى الله أن يرزقنى خيراً .

توجهت إلى مديره الدورة .. رحبت .. سألتها عن اسم الرائد الثانى ردت

« أ . د . فؤاد أبو حطب » سألتها من هو قالت « أستاذ فى كلية التربية .. راجل طيب جداً » .. آه ياخوفى من كلمة طيب .. دائماً تعنى فى مصرنا العزيزة الإنسان السلبى الذى لا يثير مشاكل أما أداؤه العلمى وارد فى التعريف ربنا يستر. توجهت إلى الغرفة المخصصة لمجموعتنا . وجدت الدارسين فى أماكنهم وكراسى الرواد لا زالت خالية . اعتقدت أول الأمر أن زميلى لم يحضر بعد، نظرت إلى الدراسين ملقيا التحية .. كان بينهم وجه معروف لدى يبدوا عليه عمرا أكبر قليلا من متوسط العمر المعتاد للدارسين ربما كان أحد مرضاى .. ربما يكون تأخر فى الحصول على الدكتوراه هكذا ظننت طفى الوجه إلى سطح الذاكرة وتبينت أنه الزميل ذو الوجه المصرى والصوت الخفيض والأسلوب العلمى فى المناقشة الذى إستطاع أن ينهى مشكلة طريقة التعليم فى اجتماع لجنة الإعداد للدورة من ثلاث سنوات . وجه أحد الدارسين كلامه إلى مشيراً إليه معرفاً به.. بالدكتور فؤاد أبو حطب .. من تلك اللحظة بدأت رحلة الأسابيع الثلاثة الأولى . بدأت الصداقة أثناءها ونمت وتعمقت خلال السنوات اللاحقة حيث كنت أسعى دائما أن نكون سوياً روادا لنفس المجموعة.

كنت لا أراه بين الدورة والأخرى إلا لماماً ورغم هذا استمر التأثير والتأثر ، تعلمت منه الكثير فى تخصصه ولم يكن ذلك الأكثر أهمية فقد أثر فى تواضعه .. تواضع العلماء لم أعرف بتقدير الدولة عندما منحته جائزة الدولة فى عام يسبق معرفتى به .. وجاءت تلك المعرفة صدفة لم يكن ممن يتباهون . أثر فى أيضا أدبه الجم وصوته الخفيض مهما حميت المناقشات . قادر بعلمه وموضوعيته على إقناع الآخر . أثر فى حياده المطلق فى تربيته لأولاده – الذين كانوا يدرسون الطب – رغم أنه وثيق العلاقة بأساتذتهم . ما قلته عن خلفه هو قليل من كثير . رحم الله فقيدنا الذى قضى نحبه وهو متوجها لتلاميذه وجعل كل ذلك فى ميزان أعماله.